العرب
الأحد 2020/04/05
السنة 42 العدد 11668

التبرع بالخصوصية

الخروج الكبير من العالم الواقعي في عوالم العصر الرقمي

قبل الكورونا وخلالها، وكذلك سيكون الحال بعد انقضاء الجائحة، سيظل العالم الافتراضي يتنامى حضوراً وتاثيراً في حياة البشر على سطح كوكبنا الأرضي. شرعنا في الإعداد لهذا الملف وبدأنا في نشره قبل أن يتحول الفايروس القاتل إلى جائحة رهيبة تهدد الإنسانية جمعاء.

في هذا الملف 12 كاتبة وكاتبا من العالم العربي استجابوا لطلب "الجديد" وكتبوا تصوراتهم بصدد انتشار العالم الافتراضي، بوصفه منظومة متكاملة من البرامج والمواقع والمؤسسات سطت على مجمل ما أنجزه الانسان عبر قرون وأدرجته في سياقها الأكول، حتى بدا وكأن العالم الافتراضي قد ابتلع العالم بما هو واقع ملموس ومستدرك بالحواس، وقد بات بلا طعم ولا رائحة، ولكنه بات القوة العظمى المهيمنة على كامل قوى البشر.

هنا أفكار وآراء وملاحظات، تتقصى حضور الشبكة العنكبوتية وهيمنتها على السوق، سوق العمل والتجارة والمال والسياسة والرياضة والثقافة والفن، وعلى صيغ التواصل بين الشباب في مشرق العالم العربي ومغربه. المقالات المنشورة تعبر عن طبيعة استجابة الفكر العربي من خلال حملة الاقلام الذين يتابعون تطور العلاقة بين العالم الافتراضي والفئات المختلفة من أبناء المجتمعات العربية. تغطي المقالات، بطبيعة الحال، الجوانب الإيجابية وكذلك الانعكاسات التي تركتها التطورات التكنولوجية على النواحي الاجتماعية والثقافية وحتى السياسية، ومعها الآثار الجانبية التي نجمت وتنجم عن العلاقة بين الشباب ومحتويات الشبكة العنكبوتية، والتطبيقات والبرامج الكثيرة المتاحة عبر الأجهزة المختلفة من الكومبيوتر إلى الآيباد إلى جهاز الموبايل وقد طغى حضوره في حياة الناس إلى ما هو أبعد من فكرة التواصل بين الاشخاص ليتحول هو نفسه إلى مكتبة للمعرفة.

الخصوصيّة والرقابة في العالم التفاعلي

الذات باتت حاضرة الآن وعلى الفور

سمية عزام
قاصة وناقدة لبنانية

كما أنّ أيّ ظاهرة لها تمثّلاتها الاجتماعيّة، وتتجلّى في فضائها حركة التشابك بين الخاص والعام، والتناوب بين الذاتيّ والموضوعيّ، بحيث تحدث في إطارها تحوّلات في البنى الفكريّة والتصوّرات والأمزجة والسلوكيّات، لا مناص من تعدّد قراءاتها الممكنة، عبر الدخول إلى عالمها من منافذ متعدّدة في العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة. والمدخل السوسيونفسي كما الوجودي يغدوان حاجة في التأويل، بوصفه فنّ فهم التجربة الإنسانيّة واختبارها، خصوصًا لدى اقتران مبدأ الخصوصيّة، وإشهارها عبر الوسائط الاجتماعيّة، بمفاهيم على شاكلة الوحدة وفكّ العزلة، والأنا الأعلى، والأنا المثالي، ومركزيّة اللوغوس / الرقيب، ودوافع التماهي والنرجسيّة والحريّة.

> حرّية الفرد مقيّدة ومحكومة بمنظومات تقويميّة عليا. في المجتمعات التي تُحكم إغلاق دائرة العائلة – الصغرى والكبرى على حدّ سواء –

ولفهم هذا التداخل بين عالم الجالس أما الشاشة الزرقاء، وعالمها، يحضرني تشبيه «الهيكل» – المعبد – وهو انعكاس لعالم إلهي متخيّل. إذ أنّ عمارته تدلّ على الصورة التي يتمثّلها البشر بخصوص الإله المعبود المقام لأجله هذا المعبد. ويبدو كأنّه جواب أرضيّ عن أسئلة سماويّة قديمة. وتأويل الهيكل أنّه صورة العالم الصغير والعالم الكبير معًا؛ فهو إذن الإنسان والعالم. هكذا، فإنّ مستخدم وسائط التواصل الاجتماعي لنشر ما يخصّه من أفكار ومعتقدات، وصور توثّق مناسباته، وإن بدا وحيدًا أمام شاشته / صندوقه الأرحب، فهو غير معزول عن العالم الخارجيّ؛ منفصل – متّصل به، متفاعل ومشارك، وليس متلقيًا أو قابعًا في صورة سالبة.

إنّما يطرح هذان الاكتظاظ في الوجوه والأسماء، والسيل في المنشورات أسئلة الدافع، والقيمة المرجوّة، والضابط لهذا الدفق. أتذكّر في هذا المقام عنوانًا لمقال مفاده «أبطال بغير بطولة». فأنا أنشر صورة أو كلمة، إذن أنا موجود. ثمة تهافت، في هذه الحالة، على تأكيد الوجود في زمن التباس الهويّة واضطراب الانتماء وتزعزع الثقة بالذات؛ إنه الوجود بغير «حضور» بمفهوم وجودي. هذا الفضاء كما يتيح حرّية النشر، فهو يسمح أيضا بحريّة النقد.

في كتابها «العلم والاغتراب والحرية» – مقال في فلسفة العلم من الحتمية إلى اللاحتمية – ترى يمنى طريف الخولي أنّ عوامل البيئة والدوافع السيكولوجية لا تحرّكنا كما تحرّك الخيوط الدمى، بل تطرح احتمالات ما للسلوك المعيّن في الموقف المعيّن. وقصارى ما تفعله أن تجعل لواحدة من الإمكانيات احتمالية أعلى من سواها. فليس ثمة حتمية لا فرار منها. وتشير إلى أنّ دور المحيط يتأكّد بقدر ما ينصبّ على الدور الذي يمارسه كلّ من أعضاء الأسرة في شبكة التفاعلات العلائقيّة اللاواعية. كما توضّح كيف تدخلت مقولة الحرية في العلوم الإنسانية المعاصرة. فالصراع بين العلم والحرّية الإنسانية قد أصبح مرحلة قابعة في التاريخ.

يتعامل علم النفس مع واقعة الاختيار وظاهرة الحرية الإنسانية. ويبقى القول قاصرًا إذا لم نعد إلى دوافع التماهي وجذور حبّ الظهور والتعبير عن الذات؛ لاسيما أنّ العالم التواصلي الإلكتروني يبدو مساحة جذب ممتازة لتعزيز النرجسيّة – وهي الحبّ الموجّه إلى صورة الذات – والتماهي البطولي بأشخاص قد يراهم المستخدِم خارقين وذوي شهرة عريضة، فيسهمون في تشكيل «الأنا المثالي» لديه.

ويجد هذا التكوين أصله في مرحلة من مراحل التكوين النفسي للكائن البشري، تُدعى «مرحلة المرآة». هذه المرحلة، بتعريف جاك لاكان تعني إدراك الصورة الذاتيّة في المرآة، وتتّضح في التماهي بصورة الشبيه باعتباره شكلًا كلّيًا؛ حيث تظهر بوادر تشكيل «الأنا» في ما بعد.

كما تتطابق مرحلة المرآة مع إطلالة النرجسية الأولى. في صورته الذاتية المرآوية، يبتهج إذ يتماهى بهذه الصورة. وهذا ما يعنينا في فهم أبعاد موضوعنا: البهجة التي يحدثها نشر الخصوصيّة، وتاليًا ما يقوّي النرجسيّة في سلسلة التماهيات الواعية واللاواعية.

إنّما ثمة ضابطان داخلي وخارجي لحركة الإشهار الإلكتروني؛ يعود الأوّل إلى مفهوم «الأنا الأعلى»، وهو بمثابة ركن يجسّد القانون ويمنع اختراقه، ويتماثل دوره مع دور القاضي أو الرقيب تجاه «الأنا».

في الضمير الخلقي، وملاحظة الذات، وتكوين المُثل العليا، بعض من وظائف الأنا الأعلى. وهو لا يتكوّن لدى الإنسان على غرار صورة الأهل، بل إنه يتكوّن فعليًا على غرار صورة أناهم الأعلى هم أنفسهم؛ فيصبح ممثل التقاليد وكل الأحكام التقويمية التي تستمر خلال الأجيال على نحو ما. والضابط الثاني – الخارجي – يرتبط بما تبيّن في المفهوم السابق، ويأتي على صورة القسر والرّدع في المجتمع الأبويّ، وإن تغيّر شكل العلاقات الاجتماعيّة. في كلا الحالين، نجد أنّ حرّية الفرد مقيّدة ومحكومة بمنظومات تقويميّة عليا. في المجتمعات التي تُحكم إغلاق دائرة العائلة – الصغرى والكبرى على حدّ سواء – توكل مهمة الرقابة إلى الأخ الأكبر بعد الأب، فضلًا عن سيادة مفهوم «المَونة» بالعاميّة بين أفراد القرية / القرى، أي حقّ الكبير بالنصح والإرشاد وتقدير الأصغر لمشورته وتقبّل لومه وربما تعنيفه، والإذعان له؛ وهو نظام بدأ يتفكّك شيئًا فشيئًا، ويُرفض في أوساط الجيل المعاصر، ليجد نظام «التفاعل المتفرّد» مع المحيط الأرحب مكانًا له يتوسّع باطّراد. إنما التجاور والالتباس سمة العصر، وما نخاله حرّية في رفض تدخّلات الأقربين، ليس بالهيّن الحكم عليه بصورته الحاليّة.

لعلّ مقولة الأخ الأكبر ووصايته تعيدنا إلى اسمين بارزين في تاريخ البشرية، هما قايين (أو قابيل) أخو هابيل ابنا آدم وحوّاء، وهارون أخو موسى (عليهما السلام) ابنا عمران، وقد مثّلا حالتين نقيضتين. قايين (المقتنى) مثال الأخ الأكبر الحاقد والحسود، وحيث أدى أخوه الأصغر دور الناصح والهادي. وبحسب الرواية، فإنّ الله لم يقبل أضحية قايين وقبلها من هابيل، لتتولّد الغيرة والضغينة في قلب الأخ الأكبر فيعزم على قتل أخيه. حمل ردّ هابيل على أخيه نصحًا وإرشادًا؛ حيث بيّن له الوسيلة التي تجعل صدقته مقبولة عند الله. ثم انتقل من حال وعظ أخيه بتطهير قلبه من الحسد إلى تذكيره بما تقتضيه رابطة الأخوة من تسامح (لئن بسطت إليّ يدك لتقتلني، ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك). ثم انتقل إلى أسلوب آخر في وعظ أخيه؛ إذ أخذ يحذّره من سوء المصير إن هو أقبل على تنفيذ فعلته.

ما الذي سيراقبه الأخ الأكبر الآن؟

لم تعد هناك حاجة إلى جدران ولا إلى آذان

الأنا الفردية في مهب اقتصاد المعلومات

تفعيل العلاقة الافتراضية ماديا

مبارك حسني

هي تجربة علائقية بالأساس تفترض لزوما كما في أيّ علاقة إنسانية حوارية التعريف بالذات قبل كل شيء. غير أن الأمر يتجاوز التعريف الكلاسيكي بما أنه يتناول علاقات حوارات ممتدة في الزمن والمكان، وليست مرتبطة وجوبا بمن نعرفهم لحما وشحما.

وبالتالي فكل شيء صار متاحا بشكل واسع، ومستباحا على نطاق لا يثير الكثير من الحيطة، بل لا يثيرها إطلاقا لدى شريحة كبيرة من الناس الذين يستعملون النت في كل ثانية وفي أيّ بقعة من الأرض. وهذا الاتساع الهائل، ثم هذه الاستباحة المستمرة، لهما طابع ديمومة لا تنتهي. طبعا الحديث هنا يتعلق بالخصوصيات الفردية وبالحميميات الشخصية والعائلية والمهنية، وأيضا تلك المتعلقة بالمحيط بدءا من الحي السكني إلى الوطن الجامع، أي أن هذه المواقع صارت مسرحا لحياتنا اليومية.

وبالتالي لم يعد السرّ سرّا، كما قال الكاتب الفرنسي باتريك موديانو الحاصل على جائزة نوبل للآداب سنة 1914 "لقد غزت مواقع التواصل الاجتماعي الجزء الحميمي والسري من حياتنا الذي كان إلى وقت قريب ملكا لنا. السر الذي يمنح عمقا للناس ويمكنه أن يكون موضوعا روائيا". ويبدو الأمر أكثر إدهاشا واتساعا من ناحية سلبية بكون هذين التوصيفين لا جغرافية محددة لهما، بما أن العالم الذي تصفه شبكات النت ذو صبغة افتراضية ورقمية.

الغريب أن هذا الافتراضي مبنيّ ومؤسس على الواقع الحي الملموس وعلى الجغرافية الفعلية إلى حد أنه صار "هو الواقع الحقيقي" كما قال الفيلسوف الفرنسي ليك فيري، وذلك بما يعقبه من آثار وأفعال من طرف جماعات كاملة في مجتمعات دون أيّ تمحيص أو تحقق مما ينشر. وهو ما يثير القلق حتما وبشكل مشروع، فلا محدودية الافتراضي تتغذى مما تنهله أو "تمتصه" دون توقف من الواقعي الذي "يتحكم" فيه إراديا طبعا وظاهرا الانسان من خلال ما يأتيه من سلوك وتصرف لم يجبره أحد على فعلهما، وذاك عندما يدلي بكلام ويرسل صورا ويسجل حديثاً ويملأ استمارة شراء أو طلب عمل أو انخراط أو أداء، وعندما يحكي أو يطلب أو يشكو، أي كل الأفعال التي تدل على المشاركة التي تبدو بريئة ومجانية وغير ذات أثر غير تنمية الذات وإشهارها وإعلانها لنفسها على نطاق يريد أن يكون أوسع إلى أكبر حد ممكن.

هذا ما دام هناك من يمنح إمكانية ذلك. أي وجود هذه الشركات المنضوية حتى مسمى السوشيال ميديا المذكورة أعلاه. فكيف لهذا الإنسان الذي كان يتحصّن خلف الجدران ويتهيّب من نشر ما يتعلق به على الملأ وفي الفضاء العام الذي انتقل إلى آلة بحجم الكف يفعل ذلك طواعية؟ بطريقة سهلة ويسيرة التناول في كل مكان وفي أيّ لحظة؟ فالسؤال الذي وجد جوابه فيما بعد، والمتعلق بمآل كل ما ينشره المرء عن نفسه من كمّ هائل من المعلومات، ما الفائدة التي تحوزها مقاولات الاتصال العنكبوتية من تقديم خدمات بلا مقابل مادي ما. هذه المجانية التي أثارت الاستغراب في البداية، قبل أن يكتشف مستخدمها الفَرِحُ بها وبما تمكنه من تحقيقه بأنها مجانيَة ظاهرية، فـ"المنتوج الذي تبيعه هو هذا المستخدم ذاته". منتوج/مستخدم مكنها من التوفر على مواقع حصينة قوية في البورصة الأميركية، بما أنها أميركية؟ هذه الأميركا التي نعرف أنها وقبل الثورة المعلوماتية كانت دائما سباقة بشكل لا يضاهى عالميا إلى حيازة المعلومة في كل أقطار العالم ولو كان جزيرة مفقودة في المحيط الهادي. المعلومة التي تساهم في بسط سيطرتها اقتصاديا على نطاق واسع. الفائدة هي هذه: لم تعد هناك حاجة إلى التنقل، المعلومة تأتي بنفسها. الأداة فقط هي التي تغيرت وصارت ذات فعالية قصوى وتتميز بتحقيق نتائج في اللحظة والحين. الأداة التي طوّر العلم من أدائها عبر برمجة تخزين المعلومات وترتيبها وتبويبها وتقسيمها وتحديد ما تتضمنه لكي تُستعمل لاحقا اقتصاديا وبالتالي سياسيا وإن بشكل مباشر.

> مجتمعات غزتها قيم السوق الرقمي

ويتكثف هذا العرض أكثر ولا فكاك منه بتاتا مادام أن الارتباط بمواقع التواصل الاجتماعي ضرورة حياتية لا محيد عنها في العصر الحالي. هي جزء من النسيج الحياتي اليومي لكل إنسان في أيّ مكان، خاصة وأن لها ايجابيات قوية لا يمكن التغاضي عنها بما توفّره من خدمات على جميع المستويات.

هي علاقة خدمة مقابل خدمة، لكن مع اختلال أول بميل توازن قوي لجهة مواقع التواصل الاجتماعي بطبيعة الحال. إن المستخدم الذي يفصل "كرونولوجيا" متجددة حول ما يتعلق بشخصه بجعلها عمومية وتغذي الموقع الاجتماعي المُدمَن عليه أو المُستعمل بشكل أولوي خاصة حول اهتماماته والأشياء التي يفضلها وما يثيره وما يعجب به، أي كل تلك المعلومات التي يمكن توظيفها من طرف شركات اقتصادية تسعى للحصول عليها وتؤدي الثمن اللازم لذلك. هذا دون طلب الإذن بشكل من الأشكال، رغم ميثاق الحفاظ على الخصوصية الذي تلتزم به هذه المواقع الاجتماعية المشهورة.